سورة الحاقة

هى مكية ، وآيها ثنتان وخمسون ، نزلت بعد سورة الملك .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه وقع فى نٓ ذكر يوم القيامة مجملا ، وهنا فصّل نبأه وذكر شأنه العظيم .

(٢) إنه ذكر فيما قبلها من كذب بالقرآن وما توعده به ، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل وما جرى عليهم ، ليزدجر المكذبون المعاصرون له عليه الصلاة والسلام .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)

شرح المفردات

الحاقة : من حق الشيء ، إذا ثبت ووجب ، أى الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجيء وهى يوم القيامة ، ما الحاقة : أى أىّ شيء هى ؟ تفخيما لشأنها ، وتعظيما لهولها ، وما أدراك ما الحاقة : أى أىّ شيء أعلمك ماهى ؟ فلا علم لك بحقيقتها ، إذ بلغتْ من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين ، والقارعة : هى الحاقة التى تقرع قلوب الناس بالمخافة والأهوال ، وتقرَع الأجرام بالانفطار والانتشار ، وسميت قارعة لشدة هولها ، إذ القرع ضرب شيء بشيء ، والطاغية : هى الواقعة التى جاوزت الحد فى الشدة والقوة كما قال « إنَّا لَمَّا طَغَى المَاء » أى جاوز الحد ، والمراد بها الصاعقة ، والصرصر : الشديدة الصوت التى لها صرصرة ، عاتية : أى بالغة منتهى القوة والشدة ، سخرها عليهم : أى سلطها عليهم ، حسوما : أى متتابعة واحدها حاسم ، والحسم : القطع والاستئصال ؛ وسمى السيف حُساما لأنه يحسم العدو عما يريد من عداوته ، وصرعى : واحدهم صريع أى ميت ، وأعجاز : واحدها عجز ، وهو الأصل ، وخاوية : أى خالية الأجواف لاشيء فيها ، والباقية : البقاء ، والمؤتفكات : أى المنقلبات وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة ، والخاطئة : الخطأ ، رابية : من ربا الشيء إذا زاد أى الزائدة فى الشدة ، وطغى الماء : تجاوز حده وارتفع ، حملنا كم : أى حملنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم ، والجارية : السفينة التى تجرى فى الماء ، وتعيها : أى تحفظها ، وتقول لكل ما حفظته فى نفسك : وعيتُه ، وتقول لكل ما حفظته فى غير نفسك : أوعيته ؛ فيقال أوعيت المتاع فى الوعاء قال : «والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد » .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه أن يوم القيامة حق لاشك فيه ، وأن الأمم التى عصت رسلها وكذبتهم ، أصابها الهلاك والاستئصال بألوان من العذاب ، فثمود أهلكت بالصاعقة

وعاد أهلكت بريح صرصر عاتية سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة ، فصاروا صرعى كأنهم أصول نخل جوفاء ، لم يبق منهم ديّار ، ولا نافخ نار ؛ وكذلك أهلك فرعون وقومه بالغرق ، وقوم لوط بالزلزال الشديد الذى قلب قراهم وجعل عاليها سافلها ، وأهلك قوم نوح بالطوفان .

الإيضاح

(الحاقة ما الحاقة ؟) هذا أسلوب من الكلام يفيد التفخيم والمبالغة فى الغرض الذى يساق له ، فكأنه قيل : أى شئ هى فى حالها وصفتها ؟ فهى لا تحيط بها العبارة ، ولا يبلغ حقيقتها الوصف .

ثم زاد سبحانه فى تفظيع شأنها ، وتفخيم أمرها ، وتهويل حالها فقال :

(وما أدراك ما الحاقة ؟) أى أىّ شئ أعلمك ماهى ؟ فهى خارجة عن دائرة علوم المخلوقات ، لعظم شأنها ، ومدى هولها وشدتها ، فلا تبلغها دراية أحد ولا وهمه ، فكيفما قدرت حالها ، فهى فوق ذلك وأعظم .

قال سفيان بن عيينة : كل ما فى القرآن قال فيه : وما أدراك ، فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر به ، وكل شئ قال فيه : ومايدريك ، فإنه لم يخبر به .

ثم ذكر بعض الأمم التى كذبت بها ، وماحاق بها من العذاب فقال :

(كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى كذبت ثمود وعاد بالقيامة التى تقرع الناس بالفزع والهول ، والسماء بالانفجار ، والأرض والجبال بالنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار .

ثم فصل ما نزل بكل أمة من العذاب فقال :

(١) (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) أى فأما ثمود فأهلكهم الله بصيحة جاوزت الحد فى الشدة كما جاء فى هود « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » وهى الصاعقة التى جاءت فى حم السجدة ، والرجفة والزلزلة التى جاءت فى سورة الأعراف ، فلا تعارض

بين الآيات ، لأن الهلاك فى بعضها نسب إلى السبب القريب ، وفى بعضها نسب إلى السبب البعيد .

(٢) (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) أى وأما عاد فأهلكوا بريح مهلكة عتت عليهم بلا شفقة ولا رحمة ، فما قدروا على الخلاص منها بحيلة : من استتار ببناء ، أو لياذ بجبل ، أو اختفاء فى حفرة ، فقد كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم ، وقد دامت سبع ليال وثمانية أيام بلا انقطاع ولا فتور .

ثم ذكر نتائجها فقال :

(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟) أى فترى قوم عاد فى تلك السبع الليالى والثمانية الأيام المتتابعة صرعى هالكين ، كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد ، وجاء فى آية أخرى : « فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ » .

(٣) (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) أى وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التى كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود والقرى التى ائتفكت بأهلها ، وصار عاليها سافلها ، بسبب خطيئتها ومعصيتها .

ثم بيَّن هذه الخطيئة بقوله :

(فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) أى فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسلَ الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفار ، كما زادت قبائحهم على قبائح غيرهم .

ونحو الآية قوله : « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ » .

(إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) أى إنا لما ارتفع الماء ، وجاوز الحد ،

وجاء الطوفان حملنا آباءكم من مؤمنى قوم نوح فى السفينة ، لننجيهم من الغرق الذى عمّ هؤلاء الكافرين جميعا .

والمشهور أن الناس كلهم من سلائل نوح وذريته .

ثم ذكر مافى هذه النجاة من العبرة فقال :

(لنجعلها لكم تذكرة) أى لنجعل نجاة المؤمنين ، وإغراق الكافرين عظة وعبرة ، لدلالتها على كمال قدرة الصانع وحكمته ، وسعة رحمته .

(وتعيها أذن واعية) أى وتفهمها أذن حافظة سامعة عن الله ، فتنتفع بما سمعت من كتابه ولا تضيع العمل بما فيه .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : « إنى دعوت الله أن يجعلها أذنك ياعلىّ » قال علىّ كرم الله وجهه : فما سمعت شيئا فنسيته ، وما كان لى أن أنسى.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨).

شرح المفردات

نفخة واحدة : هى النفخة الأولى ، حملت الأرض والجبال : أى رفعت من أماكنها ، فدكتا دكة واحدة : أى ضرب بعضها ببعض حتى اندقت وصارت كثيبا مهيلا ، الواقعة : النازلة وهى يوم القيامة ، انشقت السماء : أى فتحت أبوابا ، واهية : أى مسترخية ضعيفة القوة، من قولهم: وهى السقاء إذا انخرق، ومن أمثالهم قول الراجز:

خلّ سبيل من وهى سقاؤه ... ومن هُريق بالفلاة ماؤه

أرجائها : أى جوانبها ، واحدها رجا ، ثمانية : أى ثمانية أشخاص ، خافية : أى سريرة .

المعنى الجملى

بعد أن قص هذه القصص الثلاثة ، ونبَّه بها على ثبوت القدرة والحكمة ، وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة — شرع يذكر تفاصيل أحوال هذا اليوم وما يكون فيه من أهوال .

الإيضاح

(فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) أى فإذا نفخ إسرافيل النفخة الأولى التى عندها خراب العالَم .

(وحملت الأرض والجبال) أى رفعت من أماكنها ، ولا ندرى كيف رفعت فذلك من أنباء الغيب ، فقد يكون ذلك بريح يبلغ من قوة عصفها أن تحملهما ، أو أن ملَكا يحملهما ، أو بقدرة الله من غير سبب ظاهر ، أو بمصادمة بعض الأجرام كذوات الأذناب ، فتنفصل الجبال وترتفع من شدة المصادمة ، وترتفع الأرض من حيِّزها .

(فدكتا دكة واحدة) أى فضرب بعضهما ببعض ضربة واحدة حتى تقطعت أوصالهما ، وصارتا كثيبا مهيلا ، وهباء منبثا لايتميز شىء من أجزائهما عن الآخر .

(فيومئذ وقعت الواقعة) أى فحينئذ تقوم القيامة .

(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) أى وتصدعت السماء لأنها يومئذ ضعيفة المُنَّة كالعهن المنفوش ، بعد أن كانت شديدة الأسْر عظيمة القوة .

(والملَك على أرجائها) أى والملائكة على جوانب السماء ينظرون إلى أهل

الأرض ، ولا ندرى كيف ذلك ، ولا الحكمة فيه ، فندع تفصيل ذلك ونؤمن به كما جاء فى الكتاب ولا نزيد عليه .

(ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) أى ويحمل عرش ربك حينئذ فوق رءوسهم ثمانية من الملائكة .

(يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) أى فيومئذ تحاسبون وتسألون ، لايخفى على الله شىء من أموركم ، فإنه تعالى عليم بكل شىء ، لايعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، كما جاء فى آية أخرى : « لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ » .

وفى هذا تهديد شديد ، وزجر عظيم ، ومبالغة لاتخفى ، وفضيحة للكافرين ، وسرور للمؤمنين بظهور ما كان خفيا عليهم من أعمالهم ، وبذلك يتكامل حبورهم وسرورهم.

والتعبير بالعرض تشبيه بعرض السلطان لعسكره ، ليعرف أحوالهم ، وفى هذا العرض إقامة للحجة ، ومبالغة فى إظهار العدل .

أخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف فى الأيدى ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ : هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) .

شرح المفردات

هاؤم : أى خذوا ، ظننت : أى علمت ، ملاقٍ : أى معاين ، راضية : أى يرضى بها صاحبها ، عالية : أى مرتفعة المكان ، والقطوف : مايجتنى من الثمر ، واحدها قطف (بكسر القاف وسكون الطاء) دانية : أى قريبة ، هنيئا : أى بلا تنغيص ولا كدر ، أسلفتم : أى قدمتم ، الخالية : أى الماضية .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم يعرضون على الله ولا يخفى عليه شىء من أعمالهم — فصل أحكام هذا العرض ، فأخبر بأن من يؤتى كتابه بيمينه يشتد فرحه حتى يقول لكل من لقيه : خذ كتابى واقرأه ، لأنه يعلم مافيه من خير وفضل من الله ، ويقول : إنى كنت أعلم أن هـذا اليوم آتٍ لاريب فيه ، وإنى سأحاسب على ما أعمل ، وحينئذ يكون جزاؤه عند ربه جنة عالية ذات ثمار دانية ، ويقال له ولأمثاله : كلوا واشربوا هنيئاً بما قدمتم لأنفسكم فى الدنيا .

الإيضاح

(فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه) أى فأما من أعطى كتابه بيمينه فيقول : تعالوا اقرءوا كتابى فرحا به ، لأنه لما أوتيه باليمين علم أنه من الناجين الفائزين بالنعيم ، فأحب أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما نال .

ثم ذكر العلة فى حسن حاله فقال :

(إنى ظننت أنى ملاقٍ حسابية) أى إنى فرح مسرور ، لأنى علمت أن ربى سيحاسبنى حسابا يسيرا ، وقد حاسبنى كذلك ، فالله عند ظن عبده به .

قال الضحاك : كل ظن فى القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك. وقال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظن الدنيا شك .

وقال الحسن فى الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة ، وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل لها .

ثم بيّن عاقبة أمره فقال :

(فهو فى عيشة راضية) أى فهو يعيش عيشة مرضية خالية مما يكدر مع دوامها وما فيها من إجلال وتعظيم .

ثم فصل ذلك فقال :

(فى جنة عالية قطوفها دانية) أى فهو يعيش فى بستان عال رفيع ذى ثمار دانية القطوف ، يأخذها المرء كما يريد ، إن أحب أن يأخذها بيده انقادت له ، وهو قائم وجالس أو مضطجع ، وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت له .

(كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) أى ويقول لهم ربهم جل ثناؤه : كلوا يامعشر من رضيت عنه فأدخلته جنتى — من ثمارها وطيب مافيها من الأطعمة ، واشربوا من أشربتها ، أكلاً وشربا هنيئا لاتتأذون بما تأكلون وما تشربون جزاء من الله ، وثوابا على ماقدمتم فى دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعتى .

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ

لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

القاضية : أى القاطعة للحياة فلم أبعث بعدها ، ما أغنى عنى ماليه : أى لم يغن عنى مالى الذى تركته فى الدنيا ، هلك : أى بطل ، والسلطان : الحجة ، غلّوه : أى شدّوه بالأغلال ، والغُلّ : القيد الذى يجمع بين اليدين والعنق ، والجحيم : النار المتأججة المشتعلة ، وصليته النار وأصليته : أى أوردته إياها ، ذرعها : أى طولها ، فاسلكوه : أى فاجعلوه فيها بحيث يكون كأنه السلك : أى الحبل الذى يدخل فى ثقب الخرزات بعسر لضيق ذلك الثقب ، إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلفّ عليه ، ويقال سلكته الطريق : إذا أدخلته فيه ، حميم : أى قريب مشفق ، والغسلين : الدم والماء والصديد الذى يسيل من لحوم أهل النار قاله ابن عباس ، وعن أبى سعيد الخدرى مرفوعا : «لو أن دلوا من غسلين يُهْرَاق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا» أخرجه الحاكم وصححه ، والخاطئون : أى الآثمون ؛ يقال خطئ الرجل : إذا تعمد الإثم والخطأ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سرور السعداء بصحائف أعمالهم ، ثم بيّن حسن أحوالهم فى معايشهم ومساكنهم — أردف ذلك بذكر غمّ الأشقياء الكافرين وحزنهم بوضع الأغلال والقيود فى أعناقهم وأيديهم ، وإعطائهم الغسلين طعاما ، ثم أعقبه بذكر سبب هذا ، وهو أنهم كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحثون على مساعدة ذوى الحاجة والبائسين .

الإيضاح

(وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه) فإنه لما نظر فى صحيفة أعماله ، وتذكر قبيح أفعاله ، خجل منها وتمنى أن لو كان عذب فى النار ولم يخجل هذا الخجل .

وفى هذا إيماء إلى أن العذاب الروحانى أشد ألما من العذاب الجسمانى .

(ولم أدر ماحسابيه ؟) أى ولم أعلم أىّ شىء حسابى الذى أحاسب به ، إذ كله وبال ونكال .

(يا ليتها كانت القاضية) أى ليت الموتة التى متها فى الدنيا كانت نهاية الحياة ، لم أبعث بعدها ولم ألق ما أنا فيه من نكال وسوء منقلب .

قال قتادة : تمنّى الموت ولم يكن فى الدنيا عنده شىء أكره من الموت اه ، وشر من الموت مايطيب له الموت ، قال شاعرهم :

وشرّ من الموت الذى إن لقيته ... تمنيتُ منه الموتَ والموتُ أعظم

(ما أغنى عنى ماليه) أى لم يدفع عنى مالى الذى كنت أملكه فى الدنيا من عذاب الله ولا من بأسه شيئا .

(هلك عنى سلطانيه) أى ذهب ملكى وتسلطى على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا ، ومراده التحسر والندم ، إذ كان ينازع المحقين بسبب الملك والسلطان ، فالآن ذهب ذلك وبقى الوبال .

ثم ذكر سبحانه سوء منقلبه فقال :

(خذوه فغلّوه . ثم الجحيم صلوه) أى فيقال لزبانية جهنم : خذوه فضعوا الغُلّ فى عنقه ، ثم أدخلوه فى النار الموقدة لقاء كفره بالله واجتراحه عظيم الآثام .

(ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) أى ثم أدخلوه فى سلسلة طولها سبعون ذراعا تلفّ على جميع جسمه حتى لايستطيع تحركا ولا انفلاتا .

والعرب إذا أرادت الكثرة عبرت بالسبعة والسبعين والسبعمائة ، والمقصد إثبات أنها طويلة المدى .

ثم بيَّن سبب استحقاق هذا العذاب فقال :

(إنه كان لايؤمن بالله العظيم) أى افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله فى الدنيا وإشراكه به سواه ، وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه .

(ولا يحض على طعام المسكين) أى ولا يحث الناس على إطعام أهل المسكنة والحاجة ، فضلا عن بذل المال لهم .

(فليس له اليوم هاهنا حميم) أى فليس له يوم القيامة من ينقذه من عذاب الله تعالى ، لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه ويهرب الحبيب من حبيبه .

وجاء فى آية أخرى : « وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » وقال : « مَالِظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ » .

(ولا طعام إلا من غسلين . لايأكله إلا الخاطئون) أى وليس له طعام إلا مايسيل من لحوم أهل النار من الدم والصديد الذى لايأكله إلا من مرن على اجتراح السيئات ، ودسَّى نفسه وأحاطت به الخطايا .

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لاَتُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَاتُؤْمِنُونَ (٤١) وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَاتَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) .

شرح المفردات

ماتبصرون : هى المشاهدات ، وما لاتبصرون : هى المغيبات .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الدليل على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء ، والكافرين الأشقياء — أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول المنزل عليه هذا القرآن .

قال مقاتل : سبب نزول الآية أن الوليد بن المغيرة قال : إن محمدا ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر ، وقال عقبة : كاهن .

الإيضاح

(فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) أى أقسم بما تشاهدون من المخلوقات وبما غاب عنكم ، قال قتادة : أقسم بالأشياء كلها مايبصر منها وما لايبصر ، وقال عطاء : ماتبصرون من آثار القدرة ، وما لاتبصرون من أسرار القدرة .

(إنه لقول رسول كريم) أى إن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

(وما هو بقول شاعر) لأن محمدا لايحسن قول الشعر .

(قليلا ماتؤمنون) أى تؤمنون بذلك القرآن إيمانا قليلا ، والمراد أنهم لايؤمنون أصلا ، فالعرب تقول : قلما يأتينا ، يريدون أنه لايأتينا .

وقد يكون المراد بالقلة أنهم قد يؤمنون فى قلوبهم ثم يرجعون عنه سريعا .

(ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون) أى وليس بقول كاهن كما تزعمون ، لأنه سبّ الشياطين وشتمهم ، فلا يمكن أن يكون بإلهامهم ، ولكنكم لما لم تستطيعوا فهم أسرار نظمه — قلتم : إنه من كلام الكهان.

ثم أكد ماتقدم بقوله :

(تنزيل من رب العالمين) أى بل هو تنزيل من رب العالمين نزل به الروح الأمين على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) .

شرح المفردات

التقوّل : الافتراء ، وسمى بذلك لأنه قول متكلَّف ، والأقاويل : الأقوال المفتراة ، واحدها قول على غير قياس ، لأخذنا منه : أى لأمسكناه ، باليمين : أى بيمينه ، والوتين : عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس ، حاجزين : أى مانعين ، حق اليقين : أى عين اليقين .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن القرآن تنزيل من رب العالمين ، وليس بشعر ولا كهانة — أكد هذا بأن محمدا لايستطيع أن يفتعله ، إذ لو فعل ذلك لأبطلنا حجته ، وأمتنا دعوته ، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب ، أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب ، وقد جرت سنتنا بأن كل متكلف للقول لايقبل قوله ، ولا يصغى

السامعون إلى كلامه كما قال : « وَمَا أَنَا مِنَ المتَكَلِّفِينَ » ولا يستطيع أحد بعدئذ أن يدافع عنه .

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقى الله ويخشى عقابه ، وإنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين ، وإنه لحق لا ريب فيه .

ثم أمر رسوله بأن يقدس ربه العظيم ويشكره على ما آتاه من النعم ، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم .

الإيضاح

(ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين) أى ولو افترى محمد علينا بعض الأقوال الباطلة ونسبها إلينا لعاجلناه بالعقوبة ، وانتقمنا منه أشد الانتقام .

والأخذ باليمين يكون عند ضرب الرقبة وإزهاق الروح ، وقد جرى ذكر هذا على التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم فإنهم لا يمهلونه ، بل يضربون رقبته على الفور .

(ثم لقطعنا منه الوتين) الوتين : عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر .

قال الشماخ ابن ضرار :

إذا بلّغتنى وحملتِ رحلى عَرابةَ فاشْرَقى بدم الوتين

والمراد — أنه لو كذب علينا لأزهقنا روحه ، فكان كمن قطع وتينه ، وهذا تصوير للإهلاك بأفظع مايفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، إذ يأخذه القتّال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه .

(فما منكم من أحد عنه حاجزين) أى فما أحد منكم يمنعنا عن عقوبته ، والتنكيل به .

وجمع «حاجزين» باعتبار أحد ، إذ هو فى معنى الجماعة ، ويقع على الواحد والجمع

والمذكر والمؤنث كما جاء فى قوله : « لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » وقوله : « لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ » .

(وإنه لتذكرة للمتقين) أى وإن هذا القرآن لعظة وذكرى لمن يخشى عقاب الله فيطيع أوامره ، وينتهى عما نهى عنه ، وخص (المتقين) بالتذكرة والعظة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

(وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) له بسبب حبكم للدنيا وحسدكم للداعى ، وإنا لنجازيكم على ذلك بما تستحقون إظهارا للعدل .

والخلاصة — إن منكم من اتقى الله فتذكر بهذا القرآن وانتفع به ، ومنكم من مال إلى الدنيا فكذب به وأعرض عنه .

وفى هذا وعيد شديد لايخفى .

(وإنه لحسرة على الكافرين) أى وإن هذا القرآن لحسرة عظيمة على الكافرين فى دار الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين ، وفى الآخرة إذا رأوا ثواب المصدقين.

(وإنه لحق اليقين) أى وإنه للحق الذى لاشك فى أنه من عند الله لم يتقوّله محمد صلى الله عليه وسلم .

(فسبح باسم ربك العظيم) أى فسبح الله تعالى بذكر اسمه ، تنزيها له عن الرضا بالتقوّل عليه ، وشكرا له على ما أوحى به إليك من هذا القرآن الجليل الشأن.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

ماتضمنته هذه السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة ثلاثة مقاصد :

(١) هلاك الأمم المكذبة لرسلها فى الدنيا من أول السورة إلى قوله: «أُذُنٌ وَاعِيَةٌ »

(٢) عذاب الآخرة جزاء على التكذيب فى الدنيا .

(٣) إثبات أن القرآن العظيم وحى من عند الله وليس بقول شاعر ولا كاهن.